الحلقة 4

الشيخ عبدالله بن خلف الدحيان

(1292 – 1349هـ / 1875 – 1931م)

إعداد: مازن خرابة

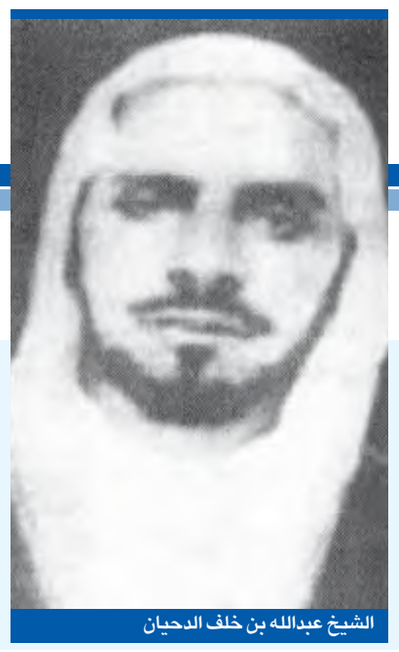
الشيخ عبدالله بن خلف الدحيان

يعد العمل الخيري والإحسان للآخرين سمة بارزة في الكويت، فمنذ القدم جبل أهل الكويت على حب الخير و حرصوا على الإحسان للآخرين، لمساعدة المحتاجين، وتقرباً إلى الله عز وجل. فكانوا يفرحون بحب الناس، ودعواهم لهم بالخير والفلاح. فقدم هؤلاء نماذج رائعة في الأعمال الخيرية داخل الكويت وخارجها أبرزها عمارة العديد من المساجد ، وكفالة الأيتام في ، وتأسيس عدد من المدارس الإسلامية.

فأهل الخير والإحسان في الكويت أكثر من أن نحصيهم ونعدهم، وبخاصة في الشدائد والمحن التي ظهر فيها معدنهم الأصيل، إذ تنافسوا في عمل الخير و بذل المعروف، فأنفقوا على الفقراء والمساكين وذوي القربى وأبناء السبيل، وبنوا المساجد والمدارس والمعاهد والمستشفيات ودور الأيتام وحفروا الآبار، فملأت سيرهم العطرة الآفاق، ونحن في «الوسط» سنقوم بنشر سير بعض المحسنين العطرة في هذا الشهر الفضيل في حلقات يومية، اقتباساً من كتاب « محسنون من بلدي».

ويعد الكتاب الذي أصدره بيت الزكاة على عدة أجزاء لمحة وفاء، وتوثيقاً لسير المحسنين وتذكرة بأعمالهم الخيرة، وتخليداً لذكراهم العطرة. وسنتوقف في هذه الحلقة مع سيرة الشيخ عبدالله بن خلف الدحيان.

- قرأ القرآن الكريم وتعلم مبادئ الخط في مكتب أبيه الملا خلف بن دحيان
- أحسن إلى الناس بعلمه وعدله وعطفه وأغدق عليهم بالمال والطعام
- كان مجلسه في الكويت عامراً بالعلم والتدريس والوعظ والإرشاد في شتى العلوم

المولد والنشأة

هو الشيخ عبدالله بن خلف بن دحيان الحربي، الحنبلي، السلفي، الأثري ولد في الكويت في الثامن والعشرين من شهر شوال سنة 1292هـ الموافق 22 سبتمبر 1875م وترعرع فيها طفلا وشابا ثم شيخا، لم يشغله شاغل عن الغوص في بحور العلم ونشره بين الناس.

قرأ القرآن وتعلم مبادئ الخط في مكتب أبيه «رحمه الله» الملا خلف بن دحيان وكان لأبيه مكتب يعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة في الطريق المعروف بسكة عنزة وفي الثانية عشرة من عمره بدأ يطلب العلم عند عالم من أجل علماء الكويت آنذاك هو المرحوم الشيخ محمد بن عبدالله بن فارس ولم يزل يتلقى العلم حتى وفاته عام 1326هـ ويحضر مستمعا مجلس الشيخ مساعد بن السيد عبدالجليل، فلم يجد فرصة لتلقي العلم إلا وانتهزها على يد علماء أجلاء ثم عكف على قراءة كتب العلم وكان ذا ذاكرة قوية.

وفي كل رحلة حج كان يلتقي بعلماء الدين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، ومع كثرة ما حصل عليه من علم كان يعلن أنه مازال في بداية الطريق.

سافر إلى الزبير عام 1310هـ 1892م لتلقي العلم على يد الشيخ العوجان وغيره من العلماء هناك، كان أول خطيب في المدرسة الأحمدية يوم افتتاحها شكر فيها القائمين على تأسيسها وطلب من الحاضرين أن يتأسوا بمؤسسيها ويناصروا مشاريع العلم.

أوجه الإحسان في حياته

لقد تميز الشيخ عبدالله بن خلف بشهادة تلامذته من العلماء بحسن معاملته للناس، وكذلك في إحسانه، فقد أحسن إلى الناس بعلمه وعدله وعطفه وأحسن إليهم بالمال والطعام، كما ساهم وشجع على إقامة المشروعات الخيرية، وكان دائما يتفقد جيرانه ويواسي المنكوب منهم سرا.

في مجال العلم والإرشاد

اتفقت كلمة العلماء في عصر الشيخ عبدالله بن خلف الدحيان على وصفهم له: «بالعالم الفاضل» وأثنوا عليه ثناء حسنا يستحقه وظهر ذلك من خلال المراسلات العلمية والإجازات التي حصل عليها من كبار العلماء، فقد كانوا به عارفين وبفضله مقرين.

لذلك فقد كان مجلسه في الكويت عامرا بالعلم والتدريس والوعظ والإرشاد في شتى العلوم، وقد فتح الشيخ بيته ومجلسه لعامة الناس، وقد انتفع به خلق كثير وجمع وفير.

يقول الشيخ عبدالله النوري رحمه الله: «ولكن مجلسه ليس للقيل والقال بل للوعظ والتذكير والإرشاد يقرأ على الناس من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم (1)».

ويقول الشيخ يوسف بن عيسى القناعي في كتابه صفحات من تاريخ الكويت: «وكان مجلسه مدة حياته مجمعا لطلبة العلم صباحا ومساء واستفاد منه كثير من طلبة العلم في الكويت»، وعرف الشيخ عبدالله بن خلف الدحيان بغزارة علمه وحسن توجيهه وله أياد بيضاء على الحياة العلمية والفكرية في الكويت فقد تتلمذ على يديه أقطاب النهضة العلمية منهم الشيخ يوسف بن عيسى القناعي والشيخ عبدالله النوري وغيرهما ممن يشهدون بالفضل له.

إحسانه للفقراء والمحتاجين

كان الشيخ عبدالله بن خلف محبا للمساكين مساعدا للفقراء والمحتاجين معينا لذوي الحاجة، فقد جمع مع علمه الواسع كرما حاتميا وفي ذلك يروي تلميذه الشيخ محمد بن سليمان الجراح فيقول:

خرج الشيخ عبدالله من صلاة الظهر فالتقى بشخص كفيف فسأله: من أين جئت؟ فقال: من عند فلان وكان ينتظر عنده من الصباح لعله يعطيه شيئا من المال، فأخذه الشيخ عبدالله وأدخله منزله وقدم له الطعام ثم أجزل له العطاء، وقال له:

عندنا فلد تمر فهل تستطيع حملها؟

ومما ذكره الشيخ أحمد الخميس عن خاله الشيخ عبدالله بن دحيان قوله:

كان عندنا جرار فيها أرز وتمور وغير ذلك من الأطعمة فكنا إذا أصبحنا نرى فيها نقصا، فعلمنا أن الشيخ رحمه الله كان ينفق منها سرا. كما حدث عنه الأديب الشاعر إبراهيم الجراح فقال: كان مؤذنه في مسجد البدر يسمى «بلال» وكان يبيع بعض الفواكه على باب المسجد بعد الصلاة، فإذا خرج الشيخ عبد الله يجيء إليه ويزن منها ويقول: خذ هذا لبيت فلان، وهذا لبيت فلان، يقصد بيوت الغائبين في رحلات الغوص الذين ليس لهم من يقوم بأمرهم، ويظل يوزع عليهم حتى لا يبقى عند بلال شيء ويقصد بذلك الإحسان للمحتاج وفي ذات الوقت إعانة مؤذنه على بيع ما لديه من فواكه.

ورغم أنه لم يكن ثريا بالمال، فإنه كان ورعا وزاهدا عما في أيدي الناس، فقد أرسل له الشيخ أحمد الجابر حاكم الكويت آنذاك مبلغا كبيرا من المال هدية يستعين به على حاله لكنه اعتذر عن قبوله راجيا ما عند الله تعالى فما عند الله خير وأبقى.

في مجال الأعمال الخيرية

كان للشيخ عبدالله بن خلف دور كبير في مناصرة المشاريع الخيرية في الكويت منها الجمعية الخيرية 1331هـ – 1913م، وكذلك المدرسة الأحمدية داعيا إلى مناصرة مثل هذه المشاريع مبينا فضل العلم في إحياء النفوس وتنوير العقول.

في مجال الإمامة

تولى الشيخ عبدالله بن خلف الإمامة والخطابة في مسجد البدر وهو من المساجد التي تقام فيها صلاة الجمعة، وكان الناس يحرصون على الصلاة فيه خلف الشيخ عبدالله بن خلف والاستماع إلى خطبه مهما بعدت المسافة بينهم وبين المسجد.

في مجال القضاء

يقول الشيخ يوسف بن عيسى القناعي: «تولى الشيخ عبدالله بن خلف القضاء 1348هـ، وكان مثالا للعفة والنزاهة والعدل، ولم نعرف أحداً تولى القضاء، وأدى واجبه مثله، وكان توليه للقضاء بإلزام من الشيخ أحمد الجابر، لأنه لم يوجد من يماثله في العلم والصلاح آنذاك وقد استقام في القضاء محتسبا لم يأخذ أجرة عليه، وهكذا كان الشيخ عبدالله بن خلف عالما ورعا زاهدا مثالا للعفة والنزاهة والعدل وقدوة في كل مجالات الخير والإحسان.

مؤلفاته

استحوذت مصالح الناس والسعي لقضاء حوائجهم على معظم وقته، ما حرمه من التفرغ للكتابة باستثناء بعض المؤلفات منها: ديوان الخطب الخيرية العصرية، ويقع في 216 صفحة، والفتوحات الربانية في المجالس الوعظية والمسائل الفقهية وغير ذلك.

قالوا عنه:

قال عنه سعود الزيد رحمه الله: «يعد الشيخ عبدالله بن خلف من مفاخر زماننا هذا، كان كثير الحياء عظيم الوفاء، محبا للمساكين، جواداً سمح الوجه، من رآه كأنما رأى أحد الصحابة».

وقال المؤرخ الشيخ عبدالعزيز الرشيد: «هو أجل علماء الكويت اليوم وأصلحهم وقد تميز بالهدوء والسكينة وحسن المعاشرة والأخلاق الفاضلة، والآداب الجمة التي يغبط عليها، وقد جمع مع علمه الواسع، كرمه الحاتمي وقلبه الحصيف، وله مكانته بين القوم لعفته وتقاه. ويقول تلميذه الشيخ عبدالله النوري رحمه الله:

«.. والذين عرفوا عبدالله بن خلف، عرفوا فيه رجلا تقيا متواضعا لله عظيما في أعين الناس، يقضي نهاره وكل نهار من أيام عمره معلما للناس واعظا لهم حلالا لمشاكلهم مفتيا في قضاياهم».

وفاته

انتقل الشيخ عبدالله الخلف الدحيان قبل فجر يوم الاثنين 28 رمضان 1349هـ – 1931م عن عمر لا يتجاوز سبعة وخمسين عاما وقد فزع أهل الكويت جميعا لخبر وفاته وخرج لتشييعه كل من يستطيع السير على قدميه من شيب وشباب حتى الصبيان وكان مشهد وداعه مهيبا فقد عاش الشيخ في قلوبهم وأحست كل أسرة أنها فقدت جزءا عزيزا منها وشعر الناس بمدى خسارتهم بفقد هذا العالم العظيم تغمده الله تعالى بواسع رحمته وجعل مثواه الجنة.

وهذه الأبيات من قصيدة قالها الشيخ يوسف بن عيسى في هذا الخطب الجلل:

يا راحلا عنا بذاتك
رفقا فإنا من هواتك
فالناس حولك في الممات
كمثلما هم في حياتك
لا فرق بين الحالتين سوى
سكوتك عن عظاتك
واهنأ بجنات النعيم
جزاء نفعك في حياتك

نشر هذا المقال في مجلة المجتمع العدد 17 لعام 1390هـ

غلاف الكتاب

غلاف الكتاب